الأطر المنهجية لنظرية الحتمية القيمية في الإعلام

أ.وسيلة مراح

جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة-

يتعرض البحث العلمي في العلوم الانسانية والاجتماعية لجملة من المشاكل الموضوعية التي تحول دون الوصول إلى نتائج ونظريات علمية مستقرة كما هو الحال في العلوم الطبيعية وعلى رأس هذه التحديات مايلي :

. عدم دقة المفاهيم والمصطلحات في العلوم الانسانية والاجتماعية، فالكثير من الباحثين يعرفها ب:"الدراسات التي تدرك العالم على أنه ينطوي على معان وتتلون معرفتها بتلك المعاني" أي أن الباحث يسعى إلى الفهم والمشاركة فتتلون معرفته بالواقعية من جهة والذاتية والكيفية من جهة أخرى بحسب المعاني التي يستخدمها.

- البحث في العلوم الانسانية ينطوي على ما يشبه الدور،فالانسان وهو موضوع الدراسة يدرس الانسان ؛ فهو الدارس والمدروس،ولهذا ينحاز الباحث بشكل أو بآخر وهذا مايسمى بالذاتية لأنه سيفسر البيانات أو سيعرض الحقائق وفق أفكاره أو تجاربه أو قيمه أو جماعته أو مصلحته أو قوى هو خاضع لها .

- صعوبة التحكم في المواقف الانسانية والاجتماعية لتداخل العوامل المكونة لها فهي متداخلة تداخلا عضويا ديناميكيا بحيث يصعب عزلها،وذلك لأن هذه الظواهر عرضة للتغيير وعدم الثبات النسبي،وهناك عامل الاحتكاك بين المجتمعات والغزو الثقافي والعسكري والاقتصادي وعامل الهجرة،فما يصدق على فترة زمنية معينة كنظرية أو حقيقة على المجتمع الواحد قد ينعكس بالمرة في زمن آخر،ثم أنه ما يصدق على مجتمع قد لا يصدق على آخر لاختلافهما في السياق أو في الثقافة .

لهذه الأسباب وأخرى فإنه يتعيّن علينا أن نؤكد على أن النظريات والمناهج العلمية تستبطن في حقيقتها الفلسفة الخاصة التي نبعت منها ومن ثمّ لا يمكن التعامل معها على أنها محايدة ؛ وهذا ما يصدق على موضوع دراستنا ‹التنظير في علم الاعلام والاتصال› وأنّه عند تدريسها لطلبتنا لا بدّ أن نتبيّن المتضمنات القيمية أوالايديولوجية والمسلمات الابستمولوجية الكامنة خلفها وهذا بمعرفة :

1ـ الاطار المرجعي:

فأيّ دراسة أو نظرية في حقيقتها تستند لاطار مرجعي ما وهذا ما تنبّه إليه أستاذنا عبد الرحمن عزي، فقد صرح في مقدمة كتابه "دراسات في نظرية الاتصال "أنّ أي علم يقوم على النظرية والمنهج المتبع للوصول إلى الحقائق؛ ولهذا تعددت المقاربات والنظريات والنماذج التي تحاول تقديم وتفسير

الظواهر الاعلامية والاتصالية ـومنها أثر وسائل الاعلام على الجمهورـ لأنها تعاني أزمة مرجعية حقيقية .

ولهذا يقول علينا الكشف عن غايات وأهداف هذه النظريات حين تدريسها إذ يختلف المنظور إليها من بيئة وحضارة ما لبيئة وحضارة أخرى(الوجود الجغرافي والوجود الحضاري) .

فاهتمام الباحث عزي بالمنظور الاجتماعي والفلسفي لدراسة الاتصال راجع لاهتمامه بالفكر الاجتماعي والفلسفي المعاصر إذ يقول :« بدأت أبحث في الظاهرة الإعلامية في المنطقة العربية استنادا إلى الفكر الاجتماعي الغربي المعاصر والذي احتكّيت به إما دارسا أو مساهما و أنا في أمريكا، فكان كتابي

" الفكر الاجتماعي المعاصر و الظاهرة الإعلامية الاتصالية: بعض الأبعاد الحضارية ثم انشغلت "بهمّ" التراث إلى حين. و لم يكن هذا الانشغال معرفيا بل منهجيا. و أعنى بذلك أنني لم أكن أهتم بالمسائل والاشكالات التي تعامل معها العلماء و الباحثون المسلمون الأوائل والمحدثون كابن خلدون و ابن طفيل و ابن القيم و مالك بن نبي، الخ وإنما بمقاربتهم أي منهجيتهم في دراسة الظواهر و قد بدت لي مناهجهم متطورة لكنها "ناقصة" في التفاصيل، و ذلك ما استكملته بالمناهج الغربية المعاصرة التي هي أكثر تطورا ليس في المقدمات النظرية و لكن في أدوات التحليل و بتعبير آخر، فإنك تجدني أمزج بين "العقلية الشرقية" و "المنهجية الغربية."

والحقيقة حين مطالعتنا لدراساته التي تزيد عن 50 دراسة نجدها تشكل سياقا لنزعة حضارية أصيلة تضع أسس نظرية جديدة للاتصال تضرب مبدأ تراكمية المعرفة الذي تكرّسه الجامعات العربية إذ نجده يقول

:« إن العادة في المحيط الأكاديمي "الكلاسيكي" التحفظ من الجديد إلى حين ،ضف إلى ذلك أن هناك نظرة ذاتية شبه انهزامية في جزء من البنية الذهنية في المنطقة العربية ومفادها عدم توقع الجديد في ظل الساحة الأكاديمية السائد في المنطقة حاليا» .

ويمكن أن نفسر ذلك أيضا بأننا نسلّم بأن التطور العلمي ما هو إلا العملية المتسلسلة التي من خلالها تضاف عناصر جديدة بشكل متفرق أو جماعي والتي تفضي إلى تراكم المعرفة ،في حين كما يشير Thomas Kuhn توماس كوهن في كتابه بناء الثورات العلمية :

أن عدم تطابق بعض النظريات مع الواقع أو عدم اندماجها معه يحدث نوعا من التحولات المتعاقبة لهذه النظريات وهو ما يسمى بالثورات العلمية أي اعادة بناء النظريات السابقة وتقييمها فالعلم كما يقول بوبر يبدأ بمشاكل وينتهي إلى مشاكل .

وهذا ما فعله الباحث عبد الرحمن عزي إذ نجده إعادة تقييم نظريات الاتصال بما فيها نظرية الحتمية التكنولوجية لماك لوهان، والنموذج الاتصالي المشهور للاسويل فناقشها على ضوء المعطيات الحضارية التي ينتمي إليها العالم الاسلامي كونه القطب الوحيد المعارض لمثل هذا الطرح ؛ فنجده يقول : «السائد في العقلية الأكاديمية الكلاسيكية أن الباحث يدرس المجهول، وهذا أمر مشروع. لكن النظرة تغفل حقيقة أن الكثير من هذه المسلمات حول بنية الاعلام وظائفه وتأثيراته ليست مبنية على معرفة مؤكدة بما لا يدع المجال للشك،فالكثير منها يدخل في باب الفرضيات أو الافتراضات فالباحث في نظري يدرس المسلمات ويحولها إلى اشكاليات جديدة وبمعنى آخر فإن الباحث لا

يكتشف أشياء جديدة وإنما يكشف عن حقائق موجودة مسبقا ولكنها لم تكن في متناوله لضعف أدوات تحليله».

وهذا ما فعله مثلا في دراسته "مسألة البحث عن منهجية بحث :إعادة النظر في نمط لازويل ـمراعاة الخصوصية الحضاريةـ".

2 ـ المسلمات والافتراضات:

كثير من النظريات والدراسات الاتصالية تنطلق من مسلمات وقواعد ومعايير تتنافى والبعد الحضاري للمجتمعات الاسلامية والعربية،وقد ناقش بعضها الأستاذ عبد الرحمن عزي إذ يقول:« معظم الدارسين الإعلاميين لا يطرحون مبدأ الشك في المسلمات التي درسوها ويسعون بدورهم إلى نقلها لطلبتهم،أضف إلى ذلك أن هذه الساحة الأكاديمية تستهلك بطريقة غير منهجية وبصفة متأخرة ما ينتجه الآخرون في الساحة الغربية إلا ما نذر».

ـقد ساد مثلا نموذج لاسويل الاتصالي لسنوات في المناهج التعليمية ومنها العربية،فأضاف عليها شقيقتي القيمة والبعد الحضاري ليؤكد خصوصية المجتمع في دراسة الظواهر الاتصالية ؛ فتكون بذلك دراساته مبنية عن وعي بالذات﴿ادراك الواقع﴾ مع استشراف المستقبل أو كما يقول "المهدي المنجرة" في كتابه "الحرب الحضارية الأولى" :« إن أزمتنا في العالم الاسلامي اليوم سواء كانت سياسية أم اقتصادية أم أخلاقية هي بالأساس أزمة استبصار » ولا نخطئ إذ نقول أن الأستاذ عزي من الباحثين المستشرفين المتبصّرين، فنظريته تندرج ضمن الاحتمال الاصلاحي من احتمالات مستقبل وسائل الإعلام والاتصال في العالم الاسلامي[فهناك احتمال اتجاهي الذي يقول باستمرار تطور وانتشار وسائل الاتصال في العالم الاسلامي/ والاحتمال التحولي الذي ينادي

بالاستقلالية والقطيعة] إذ يقول :« هذا التنظير هو مجال يتعايش مع المجالات النظرية الأخرى وهو لا يستثنيها بقدر ما يناقشها ».

ـ كما فنّد مسلمة القرية العالمية المبنية على الطراز الأمريكي الأوروبي في جميع المستويات الثقافية،الاقتصادية،الاتصالية...بدعوى العولمة،وطرح بمقابله قرية المجتمع الاسلامي المنحدر من عالمية الاسلام وهو مشروع اتصالي رائد فسيدنا محمد ـصلى الله عليه وسلمـ لم يكن قائد قبيلة بل رسول الله للبشرية قاطبة، ونجده يدلل على ذلك من القرآن «وما هو إلا ذكر للعالمين»﴿القلم 52﴾فخاصية العالمية مرتبطة فقط بسيدنا محمد ـصلى الله عليه وسلمـ وأسطورة ثقافة العولمة التي تدعو لها وسائل الاعلام اليوم ما هي إلا برنامج بشري دعائي للنمطية الأمريكية خاصة .

ـ كما ينتقد مبدأ حرية التعبيرفي كتاب دراسات في نظرية الاتصال بقوله أن الحرية هي مسؤولية أخلاقية واجتماعية؛ وأن الاتصال الفعال هو الذي ينحدر من الأبعاد الثقافية والحضارية التي ينتمي إليها المجتمع،وأن يكون مؤسسا على مشاركة واعية من الجمهور، وأن ينقل دائما القيم الثقافية والروحية التي تدفع الفرد والمجتمع إلى النمو.

ـ ويرد على الحتمية التكنولوجية بالحتمية القيمية،والحتمية هنا فرضية فلسفية تقول بأن كل ما يحدث في الكون خاضع لتسلسل منطقي سببي محدد ضمن سلسلة من الحوادث التي يؤدي بعضها إلى بعض وفق قوانين محددة يؤمن البعض بأنها قوانين الطبيعة ويؤمن البعض الآخر بأنها قضاء الله وقدره إذ يقول: « إن التأثير يكون ايجابيا إذا كانت محتويات وسائل الاعلام وثيقة الصلة بالقيم،وكلما كانت الوثائق أشد كان التأثير ايجابيا وبالمقابل يكون التأثير سلبيا إذا كانت محتويات وسائل الاعلام لا تتقيّد بأيّ قيمة أو تتناقض مع القيمة،

وكلما كان الابتعاد أكبر كان التأثير السلبي أكثر»؛ فالرسالة أهم عنده من الوسيلة ،الرسالة هي القيمة أو الكفاءة القيمية لما تنقله من قيم ثقافية وروحية بما ينعكس ايجابا على المحيط المعنوي والفيزيائي للفرد على الصعيد المحلي والعالمي،فالرسالة التي مصدرها الانسان تحمل قيما مستوحاة من الدين وما الانسان إلا أداة لنقل ونشر هذه القيم فيستشرف بذلك الأستاذ عزي كيف يجب أن يكون عليه الاعلام في العالم الاسلامي أو غيره؛ فكتب عزي عبد الرحمن عن الإعلام والبعد الثقافي وكيف يتقلص القيمي في ظل البعد المرئي،وكتب عن الثقافة وحتمية الاتصال متخذا القيمة كمرجعية وكتب عن ثقافة الطلبة والوعي الحضاري،والتكوين الإعلامي والتصورات المرجعية وكتب عن ثقافة وسائل الاتصال والتحدي الحضاري ...الخ.

3ـ مصادر المعرفة:

فهي مظان الحقيقة، فالذي يؤمن أن مصدر المعرفة هو المحسوس تختلف منهجيته عمّن ينطلق من أن مصادر المعرفة هي الوحي والوجود معا .

فالباحث عبد الرحمن عزي له تكوين قيمي إذ يوظّف مصادر الوحي قرآنا وسنة في دراسة وفهم الظواهر الانسانية والاجتماعية ومنها الاتصالية من خلال استشهاده بآيات قرآنية وأحاديث نبوية كما فعل في رده على القرية العالمية لماك لوهان بأن العالمية لا تكون إلا للاسلام واستشهد بعديد الآيات كقوله تعالى :

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »﴿الأنبياء 106﴾ وقوله :« تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا»﴿الفرقان1﴾،كما يستشهد بآثار الأولين لفهم الظواهر التاريخية والفلسفية والاجتماعية كاسهامات ابن خلدون وابن رشد ومالك بن نبي ومحمد عابد الجابري ؛

وبالمقابل هو باحث متخصص عارف ومحتك بالدراسات الغربية عارف بأنها ثقافة تنطلق من وعي فردي أو اجتماعي تاريخي له مصادره وبداياته أي له تكوين وبنية ومصير قد يخالفنا ولهذا فهو يقتبس منها ما يراعي خصوصيته فنجده مثلا متأثرا ببعض مبادئ المدرسة الظاهرتية،ولا يجد حرجا في استخدام أداة منهجية من الفكر الاجتماعي البنيوي للكشف عن التأثير الايجابي و السلبي للاتصال وهي التضاد الثنائي فتعزيز القيم يقابله مثلا تحييد القيم،ونقد الذات وتغييرها يقابله منع الفرد من نقد ذاته وتغييرها.

وفي المقابل يتحرز من استخدام أدوات منهجية أخرى كما هي دون مراعاة خصوصية المجتمع الاسلامي والعربي كأداة تحليل المضمون ودراسة الجمهور ودراسة الأثر في البحوث الاعلامية.

4ـ اشكالية المفاهيم :

فهي ظاهرة معقدة بسبب العلاقة بين اللسان أي اللغة والواقع الموجود والانسان المتعامل معه،فوضع المعاني لابد أن يؤدي إلى مناسبة اللفظ للمعنى حتى ترتسم في الأذهان دلالات واحدة ؛ ولعل هذا الموضوع قد بيّنه الأستاذ عزي بشكل واضح حينما أكد في أكثر من دراسة أن الدال ككلمة أو رمز يرتبط باللسانيات ولمعنى يرتبط بالسياق التاريخي الذي يجعل الكلمة تطفو وتبرز أو تختزن دلالات ما إلى حين ويؤكد هنا على وثاقة الصلة بين الرمز والقيمة فيقول : « قيمة الرمز تكون بمقدارما لدلالاتها من ارتباط بالخيال الذي يفسر الوضع الذي يسعى جاهدا إلى الارتقاء ».

فالقيم مثلا عند عبد الرحمن عزي هي جهد الانسان الذي يرتفع به وهي ما يسمو عن الشيئ ويرتبط بالكامن في الخيال.

وإن كان البعض ينتقد صعوبة المفاهيم التي يستخدمها وأنه لا يبحث إلاعلى التميز،نجده يرد عليهم بقوله : « التغيير يمكن أن يكون بنيويا بالمغايرة ولكنني أردت الخروج من المفاهيم الامتثالية للتعبير عن واقع أراه غير ذلك،كمفهوم الرأي العام الذي لم يخضع للنقد الكافي رغم أنه يتضمن شروطا غير قائمة في المنطقة العربية حاليا، فالحديث عن رأي عام في المنطقة العربية يحمل أكثر من التشويه للحقائق؛ وقد اتضح لي أن ما يوجد لدينا ما سميته بالمخيال الاعلامي وهو تمازج بين ما يحمله الفرد من ثقافة وخلفيات وأساطير من جهة وما يتلقاه في وسائل الاعلام من مضامين أيا كانت من جهة أخرى».

ونجده يتحدث في دراسته "الاعلام والبعد الثقافي "عن الألفاظ وكيف أنها أصبحت جزءا من التقنية وأنه في غياب القيمة ينبهر الانسان بالصورة المرئية التي تعرض الأشخاص كأمثلة تقتدى بفعل الثقافة الاستهلاكية لوسائل الاعلام فيطرح مفهوم الصورة المصوّرة أي غياب السياق المولد للمعنى وسيادة مبدأ الثقة في العين أكثر من الأذن،وذيوع الأمثلة المضللة كقولهم«الصورة أبلغ من ألف كلمة»وتقابلها الصورة التصورية أو الاستدلالية أي الناجمة من التصور أو الخيال. _دراسة"الاعلام الإسلامي:تعثر الرسالة في عصر الوسيلة يتحدث عن الزمن الاعلامي وكيف أن عنف اللسان راجع لانكسار البنية القيمية في فعل الكلام. وألفاظ ومفاهيم أخرى ك: الكتلة الايمانية أي الجماعة التي تتحرك في دائرة القيم بغض النظر عن الانتماءات الوجودية الفرعية الأخرى، والسالب والموجب في الثنائية الاعلامية، فعل السمع والبصر وماهية الحق والحقيقة،المكان الإعلامي،الأثر البيولوجي،الرأسمال الإعلامي الرمزي،بيولوجية الأثر الإعلامي،بيولوجية القيمة .

5ـ وحدات التحليل:

يعتمد كل باحث أو منظّر على وحدة تحليل في دراسته للظواهر الانسانية والاجتماعية،فمثلا هل الفرد أو الجماعة أو الأمة هي وحدة التحليل عند الباحث الاجتماعي،أم هل القوة أو السلطة أو المصلحة هي وحدة التحليل عند الباحث السياسي،أم هل اللذة أو الدافع أو الروح هي وحدة التحليل عند الباحث النفساني ؛ فكذلك الأمر في البحوث الاتصالية تتباين فيها وحدات التحليل بحسب منظّريها لكن لا أحد نصّ على القيمة كوحدة تحليل لأنهم يرون ضرورة الفصل بين الحقائق والقيم بدعوى الموضوعية والحياد العلمي في حين لا يمكن بأي حال الفصل بينهما فهناك دائما قيما كامنة وراء أيّ بحث.

وهذا ما بينه الباحث عبد الرحمن عزي إذ أوضح أهمية القيمة في التنظير الاعلامي والاتصالي، وأنه لا يمكن فهم الظاهرة الاجتماعية بمعزل عن الاطار البيئي والحضاري الذي تنتمي إليه،فحسب ما يقول فإن العالم كله هو كفاءة قيمية ولهذا نجده يدعو إلى تشكيل نظرية شاملة في الاتصال يكون مصدرها وأساسها القيم المعنوية والتي تجد عناصرها في الدين وجغرافيته هو العالم بأسره .